# قواعد المنهجية التربوية والعلمية في رسائل النور

## الملخص

الدكتور عبد الغني الهرادي[[1]](#endnote-2)

إن سعيد النورسي عاش حياة ميزتها ظروف خاصة؛ من تمزق الدولة العثمانية، وفرض الاستعمار الأوربي على العديد من بلدان المسلمين، ثم إعلان الجمهورية في تركيا، كما عرف العالم خلال النصف الأول من القرن العشرين حربين عالميتين زعزعتا الأمن ومكنتا الحلفاء من السيطرة على العالم وفرض السياسة التي تخدم مصالحهم؛ إلى جانب هذا ساد الركود الفكري في العالم الإسلامي. في ظل هذه الأوضاع حاول سعيد النورسي تنزيل مشروع فكري إصلاحي تمت محاربته واعتراضه بقوة لكنه -بسبب قوته واعتداله واستمداده من القرآن الكريم- تمكن من الاستمرار.

جمع سعيد النورسي خلاصة منهجه الإصلاحي في ”كليات رسائل النور“، التي ألفها على امتداد ثلاثين عاما، وفق نموذج بديع تتعايش فيه القوى البشرية المادية الخارجية والقوى المعنوية الباطنية، في توازن بين عالم المعاني وعالم المادة.

واستفاد النورسي هذه ”المنهجية التربوية والعلمية“ من القرآن الكريم، لتحقيق هذا التوازن، فاستطاع بها أن ينال أسباب النجاح، وأن يترك بصمات واضحة تشهد له بالنبوغ وتؤرخ لأعماله وتستمر حية بعد وفاته، وإن هذه المنهجية التربوية والعلمية المستخلصة من كليات رسائل النور تتجلى في هذه القواعد:

أولا: معالجة الأمراض الداخلية والحذر من الشبهات الخارجية

ثانيا: التوازن بين العلم والدين

ثالثا: الشمول العلمي والتناسب المعرفي

رابعا: الانسجام والتكامل بين العلوم في بوتقة التزكية

خامسا: الخطاب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن

سادسا: حفظ الوحدة والجماعة وترسيخ مبدأ التعايش السلمي

الكلمات المفتاحية: رسائل النور، المنهجية، المنهجية التربوية والعلمية.

\* \* \*

Educational and Learning Methods in the Risale-i Nur

Abstract

Dr. ‘Abd al-Ghani al-Haradi

Said Nursi’s life was characterized by special circumstances: the rupture of the Ottoman Empire, the imposition of European colonialism on many Muslim countries, and the declaration of the ”secular“ Republic in Turkey. Moreover, during the first half of the twentieth century, the world witnessed two world wars: they destabilized security in the world and enabled the Allies to impose their policy to serves their interests. On the other side of the globe, there prevailed intellectual stagnation in the Islamic world.

It was under these circumstances that Said Nursi suggested his intellectual project of reform in the ”Letters of Light“, in which the external material human forces and the inner moral forces coexist in a balance between the world of meanings and the world of substance.

Nursi benefited from his Qur’anic ”educational and scientific methodology“ to achieve this balance. He was able to discover the reasons for success and to leave his imprints on Islamic thought. That is why his approach and teachings continued to prevail even after his death. The principles of Nursi“s educational and scientific methodology are summed up below:

First: Treatment of internal diseases and caution against external treats

Second: the balance between science and religion

Thirdly: scientific comprehension and cognitive suitability

Fourth: Harmony and integration between science and spirituality

Fifthly: Enhancing dialogue with wisdom, good exhortation and a good argument.

Sixth: To preserve the unity and the community and to establish the principle of peaceful coexistence.

Keywords: Risale-i Nur, Educational and Scientific Methodology

\* \* \*

### قواعد المنهجية التربوية والعلمية في رسائل النور

رسائل النور، كما قدمها مؤلفها، ترجمان القرآن الكريم، فهي مقتبسة من أنواره، دالة على هداياته، سائرة على منهجه، ولما كان القرآن الكريم كتاب تربية وهداية، كانت رسائل النور كذلك طريقا للتزكية ومنهجا للتربية. وفي القرآن الكريم القصد إلى سلامة الفكر وترسيخ العقيدة على أساس الأدلة اليقينية النقلية والعقلية، فكانت رسائل النور أيضا محاورات عقلية وفكرية من أجل إزالة شبهات الفلسفة المادية، واستثمار العلوم الحديثة لبناء قلعة الإيمان الحصينة، وبناء عليه فرسائل النور كتاب تربية وعلم، وموسوعة تربية ومعرفة، تربي القلب وتنمي العقل، لأنها تقصد تزكية القلوب وتهذيب النفوس، وتتوجه إلى الفكر والعقل لصقله والارتقاء به في معالي الإيمان وجماليته. ففي رسائل النور يسير القارئ المتدبر في توازن بين جناحي القلب والعقل، وبين عالم المعاني والأرواح وبين عالم المادة والأشباح. وهذا هو البناء السليم الذي تتكامل فيه القوى المادية الخارجية والقوى المعنوية الباطنية.

وفي ضمان هذا التوازن بين القلب والعقل، وترسيخ التوازن بين التربية والمعرفة، سار النورسي في رسائله على قواعد واضحة سطرها لنفسه وسار عليها فيما يكتب ويسطر بقلمه، والتزمها عملا ومجاهدة في حياته اليومية وهو يعاني مشقة التكليف ومجاهدة العدو الداخلي الذي يبدأ من القلب، ويجتهد لتزكية نفسه وبناء إيمانه وتنمية علومه ومعارفه، فهي قواعد نظرية وعملية هي خلاصة لمنهج الإصلاح كما استخلصه النورسي من القرآن الكريم واستفاده من الحياة الاجتماعية وتجربة الإنسان عبر الزمان والمكان.

وفي هذا البحث استخلاص لهذه القواعد التي هي في الحقيقة المعالم الكبرى للتربية والإصلاح والتجديد في مجال الفكر والعلم، وبعبارة أخرى إن هذه المعالم هي منهج التربية والإصلاح المنشود في العالم الإسلامي، مستخلص من كليات رسائل النور ومن منهج النورسي في التربية والإصلاح الفردي والاجتماعي، والذي ينبغي أن يسير عليه الدعاة والمصلحون وأهل العلم والفكر. فهو مقترح الأستاذ النورسي في التربية والإصلاح.

أول ما بدأ به النورسي رحمه الله هو الرصد الدقيق والتتبع الشديد لأحوال الفكر الإسلامي عبر العصور حتى العصر الحاضر ليضع يده على مواطن القوة لإبرازها ومواطن الضعف والعجز لتجاوزها، وفي الوقت نفسه هناك عين أخرى يقظة تنظر إلى العالم المعاصر في جميع أحواله تحاول رصد مواطن قوته وفائدته، ومظاهر خلله، وبناء عليه ينبغي العمل على العلاج الداخلي، واتقاء العدوان الخارجي وهذه هي القاعدة الأولى:

### معالجة الأمراض الداخلية والحذر من الشبهات الخارجية

مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين أطل الأستاذ بديع الزمان النورسي بعقله وقلبه على العالم من حوله فرأى العالم الإسلامي الذي ينتسب إليه قد اضطرب بنيانه واهتزت قيمه، وهبت عليه العواصف الهوجاء من الغرب غايتها اقتلاع جذور شجرة العالم الإسلامي، وتوجهت خاصة إلى القوى المعنوية التي رسخت في القلوب وتمكنت من النفوس على الرغم من العجز المادي والتخلف الفكري في العالم الإسلامي. فإن قوى الإيمان الكامنة في النفوس لا تبلى والمعاني الباطنة التي نشأت عليها القلوب لا تذوب بالمرة، وإنما تبقى مهيأة تنتفض في كل لحظة إذا تهيأت لها الظروف. ولقد فطن الأستاذ النورسي لهذا الوضع وعرف هذه الجهود والأهداف، فاستجمع قواه للمعاملة بنقيض القصد فتوجه بالتربية والإصلاح إلى القلوب والبواطن قبل الأشباح والظواهر. فكانت البداية التنبيه إلى الأمراض ورصد العلل بدقة بالغة، وكانت الصيحة الأولى إلى العالم الإسلامي كله، صيحة فيها التواضع والتودد، وفيها النصح والتنبيه، وفيها المعالم الكبرى للإصلاح. في عام إحدى عشر وتسع مائة وألف للميلاد 1911م والعالم الإسلامي يضطرب تحت التنافس الغربي على النفوذ وتقسيم البلاد العربية وإضعاف نظام الخلافة، وراحة الحرب والعدوان تفوح قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان الأستاذ النورسي في رحلة إلى بلاد الشام، وبإلحاح من ثلة من العلماء رقي منبر الجامع الأموي بدمشق خطب في جمع غفير من المسلمين، فوقف في تواضع العلماء، لكن فكره قد اتسع ليشمل العالم الإسلامي كله، في هذه الخطبة أطلق صيحة مدوية مازال صداها ينتظر من يستقبله، ووجه دعوة لا تزال قائمة تنتظر من يجيب. وبدلا من الكلام على نظرية المؤامرة والتفنن في توجيه اللوم إلى العدو الخارجي، كما هو معتاد عند غيره، توجه رحمه الله إلى لب المشكلة ووضع يده على أصل الداء في العالم الإسلامي، لقد نبه إلى الأمراض الداخلية التي رسخت في العصور المتأخرة في الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية للمسلمين. قال رحمه الله: ” لقد تعلمت الدروس في الحياة الاجتماعية البشرية وعلمت في هذا الزمان والمكان أن هناك ستة أمراض جعلتنا نقف على أعتاب القرون الوسطى في الوقت الذي طار فيه الأجانب -وخاصة الأوربيين- نحو المستقبل، وتلك الأمراض هي: أولا: حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبواعثه. ثانيا: موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية. ثالثا: حب العداوة. رابعا: الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض. خامسا: سريان الاستبداد سريان الأمراض المعدية المتنوعة. سادسا: حصر الهمة في المنفعة الشخصية.“ ومعنى ذلك أنه يقول من هنا البدء وهذا أول الطريق. فالجسد المريض الفاقد للمناعة ليس له إلا البحث عن الدواء لمرضه، أما الانتظار وإلقاء اللوم على الأمراض التي تهجم على الجسد فلا يجدي، وإنما يزيد الأمر إدبارا، فهذا الداء، وأما الدواء فهو دواء خاص لكن دونه جهود أهل العلم والحكمة في الأمة؛ يقول رحمه الله: ”ولمعالجة هذه الأمراض الستة الفتاكة أبين ما اقتبسته من صيدلية القرآن الحكيم، الذي هو بمثابة كلية الطب في حياتنا الاجتماعية، أبينها بست كلمات إذ لا أعرف أسلوبا للمعالجة سواها“ ثم راح رحمه الله يضع القواعد العملية لمعالجة هذه الأمراض فجعلها ستا على عدد الأمراض، وكلها من نور القرآن الكريم ومن فيض التجربة في الحياة الاجتماعية. وهذه القواعد هي:

اليأس داء قاتل يجب تجنبه بالأمل وأساسه الاعتماد على الرحمة الإلهية والثقة بها.

الصدق أساس الإسلام

إن أجدر شيء بالمحبة هو المحبة نفسها وأجدر شيء بالخصومة هي الخصومة نفسها، وإن صفة المحبة هي ضمان الحياة الاجتماعية الإنسانية.

وحدة الأمة واجب شرعي وضرورة واقعية تفرضها الحياة الاجتماعية.

السيادة لا تقوم إلا بالرابطة الاجتماعية الروحية النورانية، وأساسها ذوبان الأنانيات في الجماعة.

الشورى مفتاح السعادة في الحياة الاجتماعية.[[2]](#endnote-3)

فهذه هي المعالم الكبرى لمعالجة الأمراض الداخلية، وأما الشق الثاني وهو التصدي للشبهات الخارجية فهذا ما تولاه النورسي بدقة بالغة: من ذلك كتابته رسالة الخطوات الست. فبعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى بدأ الحلفاء وخاصة الإنكليز بنشر الشائعات وترويج الشبهات الفكرية لتحطيم الروح المعنوية لدى المسلمين، وإدخال اليأس في قلوبهم وبث الشقاق والفرقة بين المشايخ والعلماء، وكان الأستاذ النورسي كعادته يقظا نبيها، فكتب رسالة الخطوات الست لبيان مكايد الغزاة، والرد على الشبهات وكشف المؤامرة، ويختم هذه الرسالة بصيحة أخرى بليغة مدوية فيقول: ”وإن ما يظهره هذا العدو من حقد دفين لا يسكن ليس هو نتيجة الحرب الحالية لأن انهزامنا كان كافيا لتسكينه كما سكن لدى الآخرين، فيا أيها المسلمون، فبعد كل هذه الأحوال تنخدعون؟ أفبعد ما رأيتم من قرب قبح الكفار وشناعتهم -بعد ما كان جميلا من بعيد- تستحسنون ما استقبحه الشرع والعقل ومصلحة الإسلام، استعيذوا بالله من همزات الشيطان والتجئوا إليه متضرعين نادمين وتوسلوا برحمة الرحمن الرحيم“.[[3]](#endnote-4)

بهذا يضع النورسي رحمه الله أمام الدعاة والمصلحين قاعدة ذهبية وهي لزوم الحذر والفطنة وعدم الركون إلى التقليد والمبالغة في تقديس الماضي والاغترار بالذات، وإنما الانتباه إلى الخلل الداخلي خاصة في مجال العلم والفكر، وفي الوقت نفسه المعرفة الكافية بأحوال العالم والانتباه لرصد الشبهات الخارجية. إنا جبهة ذات وجهين، جبهة داخلية تقصد إصلاح الخلل في الفكر الإسلامي، وجبهة خارجية غايتها رد العدوان الفكري وصد الشبهات الفكرية، إنها قاعدة التوازن بين التصدي للعدو الداخلي وهو الجهل والانحراف والتخلف الفكري والعلمي، وبين رد هجوم العدو الخارجي عن طريق الحرب الفكرية والنفسية التي هي أخطر من الحرب العسكرية وأكثر فتكا منها، ولقد بقي النورسي وفيًا لهذه القاعدة فكان فكره متوازنًا ليس فيه الغلو في التمسك بنظرية المؤامرة وتعليق جميع هزائم الأمة على العدو الخارجي في غفلة عن أمراض الأمة وتوهم الصحة والسلامة في المرض والانحراف، ولا يبالغ في جلد الذات ونزع كل خير عن الأمة وتراثها، وإنما كانت عينه على تراث الأمة وتاريخها من جهة وعلى أحوال العالم من حوله.

إن من ينظر في أحوال العالم الإسلامي الآن، بعد وفاة النورسي رحمه الله بأكثر من خمسين عاما، يدرك دقة هذه القاعدة، ويرى كيف اختل نظام التربية والإصلاح عند المسلمين، فبقي يتأرجح بين تمجيد الماضي وتقديس السلف وعدم احتمال النقص أو الخطأ في التراث والحذر من كل جديد، وبين جلد الذات وسلب كل فضيلة عن التراث، فتصدع صف الأمة وتمزق شملها، وتنازعت عقول الأمة وتناقضت بين الركون إلى القديم ليس لفائدته وصلاحه وإنما لقدمه، وبين الركون إلى الجديد ليس لفائدته وإنما لأنه جديد. إن الصراع المرير المتوهم بين الحداثة والأصالة في العالم الإسلامي مظهر بارز لهذه المشكلة، فغلب على الفكر غلو ذات اليمن أو غلو ذات الشمال، فتفرق شمل الأمة. ولقد عبر النورسي عن هذا الخلل بقوله: ”إن طلاب العلوم الدينية يدينون المدرسين الجدد.

لقد كان النورسي رحمه الله على وعي من هذا الخلل، فكان متوازنا بين الطرفين، وذلك ظاهر في رسائل النور. ففيها التنبيه إلى الخلل الداخلي والرد على الشبهات الخارجية، فليس القديم كله شرًا بسبب أنه قديم، وليس كل جديد شرًا لأنه جديد.

فتجد في رسائل النور التنبيه إلى الركود الفكري والعلمي الذي أصاب العالم الإسلامي في العصور الأخيرة، وتجد الأجوبة القوية على الشبهات الفكرية المعاصرة خاصة التي جاءت بها الفلسفة المادية.

من المسألة الأولى قوله رحمه الله بعد أن ذكر مشكلة توهم المنافاة بين الدين والعلم عند المسلمين: ” إن معاصري -مع الأسف- وإن كانوا أبناء القرن الثالث عشر الهجري إلا أنهم تذكار القرون الوسطى من حيث الفكر والرقي، وكأنهم فهرس ونموذج وأخلاط ممتزجة لعصور خلت، من القرن الثالث إلى الثالث عشر، حتى غدا كثير من بدهيات هذا الزمان مبهمة لديهم“[[4]](#endnote-5) ولهذا كانت رسائل النور محاولة لبعث الحياة في الفكر الإسلامي وتقويم ما اختل منه وإكمال ما نقص ومواصلة مسيرة التجديد والاجتهاد التي هي الوصف الملازم للفكر الإسلامي. يكفي مثالا على ذلك ما بذله رحمه الله من أجل إصلاح أمر التصوف وبعث الروح فيه وتجديد حاله، لكن من غير إثارة عداوة أو استفزاز مشاعر أو تحريك ضغائن. ”إن الأستاذ النورسي -على رغم ما نقد به المتصوفة- فإنه لم يتجاوز التصوف تجاوز نقض وتخريب؛ وإنما تجاوزه تجاوز احتضان واستيعاب وإصلاح وتجديد وتقويم وتسديد ليستأنف دوره في التربية والتزكية من أجل البناء الحضاري. فهو صوفي بالمعنى الأصلي لهذه الكلمة، وإنما أٍراد تخليص التصوف من الأشكال والصور والأسماء، لأن التصوف لا عبرة فيه بذلك وإنما العبرة بالمعنى وهذا حاله في الزمن الأول، لما كان حقيقة بلا أسماء ومعنى بلا أشكال ومسمى بلا اسم، فكان يجري أثره على القلوب وتظهر أحواله على الجوارح تلقائيا من غير حاجة إلى تخصيصه بأسماء وعناوين وصور وأشكال، ولعل نفي النورسي التصوف عن نفسه إنما أراد لنفسه أن يكون عاملا فعالا في تواضع وصمت، من غير أن يتسمى بأسماء أو يتجمل بعناوين، فيكون بذلك قد أصاب عين التصوف لأنه خلص إلى مقصده وغايته من التزكية مع السلامة والتخلية من مرض الرياء والسمعة.“[[5]](#endnote-6)

وأما المسألة الثانية فقد تناول النورسي جميع الأفكار التي راجت في العالم في العصر الحديث والتي تثير الشبهات حول قضية الإيمان، ولهذا فرسائل النور محاورات علمية عميقة وتتبع لشبهات الفلسفة المادية المعاصرة ومناقشة لمذاهب الإلحاد، ولقد أطال رحمه الله النفس في إبطال شبهات الفلسفة المادية، وهدم أسس الإلحاد، ليبني قلعة الإيمان الحصينة التي تؤيدها العلوم المادية ويشهد لها العقل السليم؛ يكفي مثالا على ذلك رسالة الطبيعة التي تناول فيها بالدرس والتحليل والنقد والمراجعة دعاوى المنكرين والملحدين وما يعتمدون عليه من أدلة القوانين الطبيعية، وأثبت رحمه الله استحالة هذا المسلك من خلال ما يترتب عليه من محالات لا يحتملها العقل والنظر.[[6]](#endnote-7)

هكذا عمل النورسي رحمه الله بقاعدة التوازن بين معالجة الأمراض الداخلية والرد على الشبهات الخارجية.

ويتفرع عن هذه القاعدة قاعدة أخرى وهي التوازن بين العقل والنقل.

### التوازن بين العلم والدين

هذه قاعدة عظيمة مهمة عند الأستاذ النورسي، بل هي أصل القواعد العلمية عنده، وسبب ذلك أن من المشكلات التي أثرت بقوة في العالم الإسلامي في العصر الحديث توهم التعارض بين العلم والدين، فبسبب غلبة الفكر الغربي القائم على العلمانية، غلبت فكرة مناقضة الدين للعلم، وأن العلم لا يسير في طريقه الصحيح إلا بنبذ الدين لأنه حجر عثرة في طريقه، وهكذا تسرب العداء للدين إلى النفوس، وتبناها كثير من المسلمين، ولقد جر هذا على المسلمين كثيرا من الضرر من معاداة الدين، أو زعزعة الإيمان في قلوب المسلمين على الأقل.

ولم يعتمد النورسي هذه القاعدة من باب رد الفعل على الفكر الغربي، وإنما من باب أنها قاعدة بدهية في الفكر الإسلامي، وأن العمل بها ليس أمرا جديدا مستحدثا وإنما هو تصحيح للوضع وإعادة لمنهج العلم إلى أصله وطبيعته، فبين رحمه الله أن العلم والدين صنوان لا يفترقان، كل واحد منها يؤيد الآخر ويشهد له.

وفي أهمية هذه القاعدة وفائدتها العلمية والعملية، وخطورة التهاون فيها، تقول شكران واحدة (ماري ويلد): ”يقسم بديع الزمان تاريخ الإنسانية إلى تيارين: أحدهما تيار النبوة والآخر تيار الفلسفة والعلوم، ويربط كل التيارين بذات الإنسان ويصور نتائج كلا التيارين؛ فالنبوة التي تمثل الوحي الإلهي تخاطب قلب الإنسان، أما الفلسفة فتخاطب عقله، والهدف هو اتفاق الإثنين، أي قيام الفلسفة باتباع الدين واتباع النبوة وخدمتها، وكلما تم هذا ذاقت الإنسانية طعن السعادة وعاشت في انسجام وتناغم، وعندما يفترق أحدهما عن الآخر ينسحب الخير والنور إلى جانب النبوة، ويتراكم الشر والضلالة -كما حدث في الغرب- في جانب الفلسفة“[[7]](#endnote-8) وهذا الفصام الذي ذكرته ماري ويلد هو الواقع المرير في العصر الحديث، وقد ألقى بإصره على العالم الإسلامي فتمزق الفكر بين الحداثة والتقليد، والأصالة والمعاصرة، والعلم والدين. والحال أن الفكر الإسلامي في عصره الذهبي لم يشهد هذا الفصام، وإنما كان العلم مظهرا للتدين الحق. ولهذا فقد أصاب النورسي كبد الحقيقة لما أكد على هذه القاعدة، لأنها الطريق العلمي المنهجي لإزالة الصراع المتوهم بين القديم والحديث، وتثبيت لقيام الدين على العلم. ولقد اجتهد رحمه الله من أجل التنزيل العملي لهذه القاعدة وتدريس العلم والدين في انسجام واتفاق. فتدريس الدين في المعاهد العلمية والتقنية يعصم من الشك والإلحاد، وتدريس العلوم الحديثة في معاهد الشريعة يعصم من التعصب والتقليد وضيق النظر. وهذا هو أساس مشروع مدرسة الزهراء الذي وضعه النورسي، فهو تصور للجامعة الإسلامية في شمولها وانسجام العلوم فيها وتكامل المعارف في تخصصاتها.[[8]](#endnote-9)

أما في رسائل النور فهذه القاعدة حاضرة بقوة، ففيها الجمع بين دليل الوحي وحقيقة الحياة والكون، وفيها التأليف بين نور العقل وحقائق الشريعة؛ بل يعتبر رحمه الله أن علوم الكون طرق معبدة تؤدي سالكها إلى معرفة الله تعالى والإيمان به وبما يتصف به من الجلال والجمال.

يكفي أن نستشهد لذلك بهذا المقطع من الكلمات حيث يقول رحمه الله:

”جاءني فريق من طلاب الثانوية في قسطموني قائلين: عرفنا بخالقنا، فإن مدرسينا لا يذكرون الله لنا! فقلت لهم: إن كل علم من العلوم التي تقرؤون يبحث عن الله دوماً، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة، فاصغوا إلى تلك العلوم دون المدرسين. فمثلاً: لو كانت هناك صيدلية ضخمة، في كل قنينة من قنانيها أدوية ومستحضرات حيوية، وضِعت فيها بموازين حساسة، وبمقادير دقيقة؛ فكما أنها ترينا أن وراءهـا صـيدليا حكيماً، وكيميائياً ماهراً، كذلك صيدلية الكرة الأرضية التي تضم أكثر من أربعمائة ألـف نوع من الأحياء نباتاً وحيواناً، وكل واحد منها في الحقيقة بمثابـة زجاجـة مستحضـرات كيمياوية دقيقة، وقنينة مخاليط حيوية عجيبة، فهذه الصيدلية الكبرى تري حـتى للعميـان صيدليها الحكيم ذا الجلال، وتعرف خالقها الكريم سـبحانه بدرجـة كمالهـا وانتظامهـا وعظمتها، قياساً على تلك الصيدلية التي في السوق، وفق مقاييس علم الطب الذي تقرأونه. ومثلاً: كما أن مصنعاً خارقاً عجيـباً ينسـج ألوفاً من أنـواع المنســوجات المتنوعة، والأقمشة المختلفة، من مادة بسيطة جداً، يرينا بلا شك أن وراءه مهندساً ميكانيكياً ماهراً، ويعرفه لنا؛ كذلك هذه الماكنة الربانية السيارة المسماة بالكرة الأرضية، وهذا المصـنع الإلهي الذي فيه مئات الآلاف من مصانع رئيسية، وفي كل منها مئات الآلاف من المصـانع المتقنة، يعرف لنا بلا شك صانعه، ومالكَه، وفق مقاييس علم المكائن الذي تقرأونه، يعرفـه بدرجة كمال هذا المصنع الإلهي، وعظمته قياساً على ذلك المصنع الإنساني... وهكذا فإن كل علم من العلوم العديدة جداً، يدل على خالق الكون ذي الجلال -قياساً على ما سبق- ويعرفه لنا سبحانه بأسمائه الحسنى، ويعلّمـه إيانـا بصـفاته الجليلـة وكمالاته. وذلك بما يملك من مقاييس واسعة، ومرايا خاصة، وعيون حادة باصرة، ونظرات ذات عبرة.“[[9]](#endnote-10) وهكذا تأتلف علوم الكون مع علوم الشرعية، ويجتمع الإيمان مع العلم.

ومن إبداع النورسي أنه أجرى هذه القاعدة حتى في منهج التصوف الذي غلب على أصحابه في العصور المتأخرة مسلك نبذ الدنيا والتخلي عن زينتها. لقد أثبت النورسي رحمه الله أن التصوف لا ينافي هذا التوازن بين العقل والقلب وبين الدين والدنيا بل هو أحد مسالك هذا التوازن. فالتصوف في حقيقته تأليف بين العقل والقلب لأن ”حقيقة السلوك وجوهر التصوف هو تحقيق الانسجام والتواصل بين قوى العقل وإشراقات القلب، والتأليف بين جمال العلم ومحاسن اللذة الروحية، إنه امتزاج دائم لا ينفصل، وقد تجلى هذا في حياة النورسي، فلا تكاد تفصل بين النورسي وهو يفكر وبينه وهو يناجي ربه ويرتقي في منازل القربى، فكل موقف يقفه وكل لحظة من لحظات الحياة فيه فائدة علمية للعقل، وعبرة للقلب وموعظة للوجدان، ولعله قصد من هذا بيان انحراف تسرب إلى حياة السالكين وغير السالكين، عندما وضعت حدود فاصلة بين معرفة العقل ووجدان القلب، فتجد المرء -إن ظهر له وجه عناية بالقلب- يجعل لنفسه وقتا خاصا للقلب في التكية مع الشيخ، وما سواه ليس إلا لحياة الجسد والعقل، فإما غارقا في التفكر، وإما سابحا في الأسرار، إما تعقل جاف وإما اتعاظ مغرق في الأسرار والخوارق.“[[10]](#endnote-11) ومن أمثلة هذا الانسجام عنده جمعه بين علوم كثيرة، مختلفة في الظاهر، لكنها منسجمة في الحقيقة، وهي: علوم الكون، والسيرة النبوية الشريفة، وتفسير القرآن الكريم وإعجازه. فهي مختلفة في مجالاتها وموضوعاتها، لكنها -عند النورسي- منسجمة متفقة في هدف عام سام عظيم وهو التعريف بالله تعالى. قال رحمه الله: ”إنَّ ما يُعرِّفُ لَنا رَبَّنا هو ثلاثةُ مُعَرِّفين أَدِلَّاءَ عِظامٍ:

أَوَّلُه: كتابُ الكَونِ، الَّذي سَمِعنا شَيئًا مِن شَهادَتِه في ثَلاثَ عَشْرةَ لَمعةً ”مِن لَمَعاتِ المَثنَوِيِّ العَرَبيِّ النُّورِيِّ.“

ثانيه: هو الآيةُ الكُبـرَى لِهذا الكِتابِ العَظيمِ، وهو خاتَمُ دِيوانِ النُّـبُوّةِ .

ثالِثُه: القُرآنُ الحَكِيمُ...“[[11]](#endnote-12)

إن التأليف بين الدين والعلم منهج أصيل في الفكر الإسلامي، وإن الانسجام بين العقل والقلب أساس التربية لأن به يتم التوازن بين القوى العقلية والروحية والمادية في الإنسان، فهذه قاعدة من قواعد العلم والتربية بها يحصل الانسجام بين الفكر والواقع ويتم التكامل بين العلوم المختلفة لأنها تخدم هدفا واحدا وهذه هي القاعدة الثالثة قاعدة: الشمول العلمي والتناسب المعرفي.

### - الشمول العلمي والتناسب المعرفي

ومعناه استثمار كل العلوم النافعة لخدمة الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية، والحياة الفردية والاجتماعية أسها الإيمان. ولهذا لابد في الفكر الإسلامي من الشمول والسعة ليستوعب جميع العلوم لتسير جميعها نحو هدف واحد عام هو إظهار جمال الإيمان وترسيخه في القلوب، وهذه القاعدة ظاهرة في رسائل النور، ففيها العلوم الإسلامية والعلوم الكونية والاجتماعية والإنسانية، فالنورسي استثمر جميع العلوم الإسلامية في شمولها وانسجامها وتناسب حقائقها ووحدة هدفها العام وهو بناء قلعة الإيمان وتحصينها، ففي رسائل النور تفسير القرآن الكريم، وإعجاز القرآن البياني والموضوعي، والحديث والسيرة النبوية، والفقه وقواعده، واللغة العربية، وعلم الكلام والمنطق، والزهد والتصوف، والعلوم المادية الحديثة من طب وفلك وفيزياء وعلوم الحياة والأرض، فلم يسقط النورسي رحمه الله فيما وقع فيه كثير من المسلمين في العصر الحديث من وضع الحواجز بين العلوم، ومعاداة بعضهم لقسم من العلوم بسبب المذهبية، وتشهير سيف الإنكار عليها والتحذير منها، وإنما أفاد من كل علم أحسن ما فيه، فلم يعاد التصوف ولا علم الكلام ولا المنطق -كما هو عند غير واحد من العلماء المعاصرين- على الرغم مما قد يلاحظ على بعض قضاياها ومناهجها من القصور أو عدم مناسبتها للعصر الحاضر، ولم يتردد في الإفادة من العلوم الحديثة واستثمار فوائدها، فجمع بين العلوم في انسجام وتوافق، واستثمر كل علم في مجاله في سياق هدفه وهو خدمة الإيمان.

فمثلا قضايا علم الكلام التي هي قواعد نظرية مجردة تستعصي في فهمها على عامة طلبة العلم، لكن النورسي أوردها في سياق خاص يمنحها الحياة وييسر فهمها، واستثمر ما في مناهجها من تثوير العقل وتحريك الفكر لبناء اليقين وطرح الشبهات.

الانسجام والتكامل بين العلوم في بوتقة التزكية

ومعنى ذلك الحرص على منفعة العلم وفائدته، ولا علم نافع إلا ما فيه فائدة تربوية، فكل معرفة لا تثمر فائدة في تربية النفس وتزكيتها وتصفية الباطن فلا تستحق البحث والاهتمام، ولهذا كانت التربية حاضرة في كل ما كتب النورسي، وكان يحرص على استثمار كل علم في التربية والتزكية، وكان لا يمر على فائدة أو معرفة في جميع العلوم إلا استنبط منها من يناسب من الفوائد التربوية التي تنفذ إلى باطن الإنسان وتحرك قلبه، فكان لا يقف عند المعرفة العلمية المجردة التي تقصد ترقية العقل بالمعرفة والعلوم المختلفة، ففي التفسير مثلا عندما يعرض لقصص الأمم والأنبياء كان لا يهتم كثيرا بتفاصيل الوقائع كما هو عند كثير من المفسرين، وإنما يقتصر على جملة يستفاد من ظاهر الآيات من جهة الأحداث والوقائع، ليمر إلى التركيز على ما يهم كل مسلم مكلف من الفوائد، فكان يورد القصة على النحو الذي يفهم منه القارئ أنه معني بكل ما ورد في القصة؛ يكفي مثالا على ذلك ما فعل عندما أورد قصة يونس وقصة أيوب عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسلم.

ففي قصة يونس مهد بقوله ”إنَّ مناجاة سيدنا يونس بن متّى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- هي من أعظم أنواع المناجاة وأروعِها، ومن أبلغِ الوسائل لاستجابة الدعاء وقبوله...“ وفي هذا التمهيد بلاغة استهلال، وفائدته توجيه الاهتمام من البداية إلى الفائدة المهمة المقصودة من القصة، ثم عرض القصة باختصار جامع مفيد لم يزد فيه على ما أفادته الآيات القرآنية فقال: ”تتلخص قصتُه المشهورة بأنه عليه السلام قد أُلقيَ به إلى البحر، فالتقمه الحوتُ، وغشيَتْه أمواجُ البحر الهائجةُ، وأسدل الليلُ البهيم ستارَه المظلمَ عليه. فداهَمَته الرهبةُ والخوف من كل مكان وانقطعت أمامَه أسبابُ الرجاء وانسدت أبوابُ الأمل.. وإذا بمناجاته الرقيقة وتضرعه الخالص الزكي: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾الأنبياء:87 يُصبح له في تلك الحالة واسطةَ نجاة ووسيلة خلاص...“ ثم جاء يفصل في الفائدة التي ينبغي صرف النظر إليها والاهتمام بها من جميع وقائع القصة وأحداثها وهي قوة المناجاة وإخلاص الدعاء وكمال التضرع عند تهاوي الأسباب المادية، وهو قوله: ”وسر هذه المناجاة العظيم هو أنَّ الأسباب المادية قد هَوت كلياً في ذلك الوضع المرعب، وسقطت نهائياً فلم تحرّك ساكناً ولم تترك أثراً، ذلك لأنَّ الذي يستطيع أن ينقذه من تلك الحالة، ليس إلاّ ذلك الذي تنفُذُ قدرتُه في الحوت، وتهيمن على البحر وتستولي على الليل وجوّ السماء؛ حيث إنَّ كلاً من الليل الحالك والبحر الهائج والحوت الهائل قد اتفق على الانقضاض عليه، فلا يُنجيه سببٌ، ولا يخلّصه أحدٌ، ولا يوصله إلى ساحل السلامة بأمان، إلاّ مَن بيده مقاليد الليل وزمام البحر والحوت معاً، ومَن يسخّر كلَّ شيء تحت أمره... حتى لو كان الخلقُ أجمعين تحت خدمته عليه السلام ورهن إشارته في ذلك الموقف الرهيب، ما كانوا ينفعونه بشيء!

أجل، لا تأثير للأسباب قط.“ ثم بين كيف انكشف لسيدنا يونس سر الأحدية لما انقطعت أمامه جميع الأسباب فأخلص في التضرع والمناجاة، فإذا بالأعداء التي كانت ترعبه تحولت إلى أنيس مدافع عنه، فتحول بطن الحوت إلى ما يشبه غواصة أمينة هادئة تسير تحت البحر بأمان، وأصبح البحر المضطرب متنزها جميلا حتى خرج إلى شاطئ السلامة وشاهدَ لُطف الرب الرحيم تحت شجرة اليَقطين.

ثم حول النورسي الخطاب إلى كل قارئ لهذه القصة حتى يعرف أنه في مثل حال سيدنا يونس عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. فكل واحد من المكلفين في بحر وفي ليل بهيم، ويحيط به من الأعداء أضعاف ما أحاط بسيدنا يونس ”ليلَنا الذي يخيّم علينا، هو المستقبل... فمستقبلُنا إذا نظرنا إليه بنظر الغفلة يبدو مظلماً مخيفاً، بل هو أحلك ظلاماً وأشد عتامة من الليل الذي كان فيه سيدنا يونس عليه السلام بمائة مرة...

وبحرَنا، هو بحر الكرة الأرضية، فكل موجة من أمواج هذا البحر المتلاطم تحمل آلاف الجنائز، فهو إذن بحر مرعب رهيب بمائة ضعف رهبة البحر الذي أُلقي فيه عليه السلام...

وحوتَنا، هو ما نحمله من نفس أمارة بالسوء، فهي حوت يريد أن يلتقم حياتنا الأبدية ويَمحَقَها. هذا الحوتُ أشد ضراوة من الحوت الذي ابتلع سيدَنا يونس عليه السلام؛ إذ كان يمكنه أن يقضي على حياة أمدُها مائة سنة، بينما حوتُنا نحن يحاول إفناء مئات الملايين من سني حياة خالدة هنيئة رغيدة.

فما دامت هذه حقيقةَ وضعنا، فما علينا إذن إلاّ الاقتداءُ بسيدنا يونس عليه السلام والسير على هديه، مُعرضين عن الأسباب جميعاً، مُقبلين كلياً على ربنا الذي هو مسبّب الأسباب متوجهين إليه بقلوبنا وجوارحنا، ملتجئين إليه سبحانه قائلين: ﴿لا إِلَهَ إِلاّ أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾“ وهكذا يثبت في قلب القارئ حقيقة فقره وعجزه أمام ما يحيط به من الأعداء، ويثبت في قلبه الحاجة إلى الاستمداد، ويدله على أن التضرع إلى خالقه العظيم الرحيم ومناجاته والاعتصام بحبله ضرورة لإنقاذ حياته، ثم يختم فيقول: ”الخلاصة: إنَّ الإنسان بما يحمل من ماهية جامعة يتألم من الحمّى البسيطة كما يتألم من زلزلة الأرض وهزّاتها، ويتألم من زلزال الكون العظيم عند قيام الساعة. ويخاف من جرثومة صغيرة كما يخاف من المذنبات الظاهرة في الأجرام السماوية. ويحب بيتَه ويأنس به كما يحب الدنيا العظيمة. ويهوى حديقته الصغيرة ويتعلق بها كما يشتاق إلى الجنة الخالدة ويتوق إليها.

فما دام أمرُ الإنسان هكذا، فلا معبودَ له ولا ربَّ ولا مولى ولا منجىً ولا ملجأ إلاّ مَن بيده مقاليدُ السماوات والأرض وزمام الذرات والمجرات، وكل شيء تحت حُكمه، طوعَ أمره... فلابد أن هذا الإنسان بحاجة ماسة دائماً إلى التوجّه إلى بارئه الجليل والتضرع إليه اقتداءً بسيدنا يونس عليه السلام. فيقول: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاّ أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾“[[12]](#endnote-13)

مثله فعل في قصة سيدنا أيوب عليه السلام فبعد إيراد خاصتها قصد إلى الفائدة التربوية التي تهم كل فرد مكلف فقال: إنه إزاء تلك الجروح الظاهرة التي أصابت سيدَنا أيوبَ عليه السلام، توجد فينا أمراضٌ باطنية وعللٌ روحية وأسقامٌ قلبية، فنحن مصابون بكلّ هذا. فلو انقلبنا ظاهراً بباطن وباطناً بظاهر، لظهرنا مُثقَلين بجروحٍ وقروح بليغة، تهدد حياتَنا الأخروية المديدة بخطر.. فنحن إذن محتاجون أشد الحاجة إلى تلك المناجاة الأيوبية الكريمة بأضعافِ أضعاف حاجته عليه السلام إليها. وبخاصةٍ إن الديدان المتولدة من جروحه عليه السلام مثلما أصابت قلبَه ولسانَه، فإن الوساوس والشكوك -نعوذ بالله- المتولدة عندنا من جروحنا الناشئة من الآثام والذنوب تصيب باطنَ القلب الذي هو مستقرُّ الإيمان فتزعزعُ الإيمانَ فيه، وتمسّ اللسانَ الذي هو مترجم الإيمان فتُسلبه لذةَ الذكر ومتعتَه الروحية، ولا تزال تنفّره من ذكر الله حتى تُسكته كلياً.

نعم، الإثمُ يتوغل في القلب ويمدّ جذورَه في أعماقه، وما ينفك ينكُتُ فيه نكتاً سوداء حتى يتمكن من إخراج نور الإيمان منه، فيبقى مظلماً مقفراً، فيغلظ ويقسو.

نعم، إن في كل إثم وخطيئةٍ طريقاً مؤدياً إلى الكفر، فإن لم يُمحَ ذلك الإثم فوراً بالاستغفار يتحولْ إلى دودة معنوية، بل إلى حية معنوية تعض القلبَ وتؤذيه.“[[13]](#endnote-14)

**الخطاب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن**

هذه خاصية بارزة في رسائل النور، يتجلى فيها بوضوح منهج المحاورة الهادئة، مع قوة الحجة وعمق البراهين، ومخاطبة العقل، حتى لو كان صاحبه من أشد المنكرين وأقوى المعاندين. ويحرص أيضا على مداعبة القلب حتى إن القارئ ليحس بأنه يتودد إليه ويحاول أن يقدم إليه أحسن ما عنده.

وهذا ما أعطى رسائل النور الانتشار، فأقبل عليها الكثير من المسلمين ومن غير المسلمين. وكانت سبيل هداية لكثير من أهل الملل من غير المسلمين.

ففي محاورة الملحدين والماديين يكفي لبيان هذا المنهج، قراءة رسالة الطبيعة ليقف القارئ على منهج المحاورة العقلية الهادئة التي تأخذ بعقل الإنسان، كيف ما كان مذهبه وملته، في تدرج من البسيط إلى المركب، وإعمال المحاكمة العقلية القائمة على السبر والتقسيم، والتدرج في تتبع الاحتمالات حتى ينتهي إلى النتيجة. يبدأ هذه الرسالة بالخطاب الموجه إلى الإنسان، يخاطب فيه قواه العقلية والفكرية، ويثير فطرته إلى النظر العقلي المجرد الذي هو قسمة مشتركة بين البشر فيقول رحمه الله في هدوء ووقار: ”أيها الإنسان، اعلم أن هنالك كلماتٍ رهيبة تفوح منها رائحة الكفر تخرج من أفواه الناس، وترددها ألسنة أهل الإيمان دون علمهم بخطورة معنى ما يقولون، وسنبين ثلاثًا منها هي الغاية في الخطورة.

أولاها قولهم عن الشيء: أَوْجَدَتْهُ الأَسْبَابُ أي إن الأسباب هي التي توجِد الشيءَ المعين. ثانيتها قولهم عن الشيء: تَشَكَّلَ بِنَفْسِهِ أي إن الشيء يتشكل من تلقاء نفسه، ويوجد نفسه بنفسه وينتهي إلى صورته التي انتهى إليها كما هو. ثالثتها قولهم عن الشيء: اقْتَضَتْهُ الطَّبِيعَةُ أي إن الشيء طبيعي، والطبيعة هي التي أوجدته واقتضته. نعم مادامت الموجودات موجودة وقائمة أمامنا بما لا يمكن إنكارها مطلقا، وأن كل موجود يأتي إلى الوجود في غاية الإتقان والحكمة، وهو ليس بقديم أزلي، بل هو محدث جديد. فيا أيها الملحد، إما أن تقول إن هذا الموجودَ -وليكن هذا الحيوان مثلا- توجِده أسباب العالم، أي أنه يكتسب الوجود نتيجة اجتماع الأسباب المادية، أو أنه يتشكل بنفسه، أو أنه يرد إلى الوجود بمقتضى الطبيعة ويظهر بتأثيرها، أو عليك أن تقول إن قدرة الخالق القدير ذي الجلال هي التي توجده، إنه لا سبيل إلى حدوثه غير هذه الطرق الأربعة، حسب موازين العقل. فإذا ما أثبت إثباتا قاطعا أن الطرق الثلاثة محالة باطلة ممتنعة، غير ممكنة، فبالضرورة والبداهة يثبت الطريق الرابع وهو طريق وحدانية الخالق بيقين جازم لا ريب فيه“[[14]](#endnote-15) وبهذه المحاورة العقلية الهادئة يأخذ بعقل القارئ يتدرج به في الممكنات والمستحيلات حتى ينفي ما لا يمكن وينفي ما يستحيل ليسلم له ما يمكن بضرورة العقل وهو خلق العالم وإبداع الموجودات بقدرة الخالق ووحدانيته، لقد تحققت في رسائل النور قاعدة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وظهر فيها منهج المجادلة بالتي هي أحسن.

### حفظ الوحدة والجماعة وترسيخ مبدأ التعايش السلمي

كان أمر وحدة الأمة هدفا حاضرا بقوة عند النورسي، لا يغيب عنه أبدا، فكان يستحضره في جميع أعماله، ويعتبره وهو يؤلف رسائله. فكان ينظر بنظر الأمة الإسلامية بجميع مذاهبها، ويتسع نظره ليشمل بقاع الأرض حيثما كان مسلمون، ويمتد نظره إلى التاريخ الإسلامي كله. ولقد عبر بدقة عن ذلك فيما سماه الاتحاد المحمدي وبينه بقوله: ”إن أساس هذا الاتحاد يمتد من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال... ومركزه الحرمان الشريفان... وجهته وحدته التوحيد الإلهي... عهده وقسمه الإيمان، نظامه الداخلي: السنة النبوية الشريفة... قوانينه: الأوامر والنواهي الشرعية... مقر اجتماعاته: جميع المدارس والمساجد والزوايا... ناشر أفكار تلك الجماعة نشرا خالدا إلى الأبد: جميع الكتب الإسلامية وفي المقدمة القرآن الكريم وتفاسيره (ورسائل النور أحد تلك التفاسير في زماننا هذا)، وجميع الصحف الدينية والجرائد النزيهة التي تهدف إلى إعلاء كلمة الله.. ومنتسبوه: جميع المؤمنين... رئيسه: فخر العالمين .“[[15]](#endnote-16)

كان هذا التصميم الجميل والشامل للوحدة بداية العمل من أجل الوحدة، ثم اجتهد النورسي رحمه الله في تتبع أسباب الاختلاف ورصدها، واعتبرها أمراض هذه الأمة، يقول الدكتور عبد الكريم عكيوي: ”لقد تنبه النورسي رحمه الله إلى داء الاختلاف، فرصد بدقة بالغة، ونبه الأمة إليه، ووضع مسالك علمية ومنهجية وتربوية للتخلص منه، أما الأسباب فقد تنبه إلى الأسباب الخارجية والداخلية، وكان أكثر عنايته وأعظم جهده متجها إلى الأسباب الداخلية، ولعل سبب ذلك أن الأسباب الخارجية لا تؤتي أثرها إلا بالأسباب الداخلية، فإن غفلة الأمة عن الروابط التي تجمعها، والغفلة عن التربية وإهمال التعليم كل ذلك سبب عجز الأمة من مقاومة الكيد الخارجي...“[[16]](#endnote-17)

### الخطبة الشامية مشروع وحدة الأمة:

تنبه النورسي إلى الأسباب الداخلية ورصد داء الاختلاف، وتنبه إلى خطورته وأرسل صيحات مدوية إلى العالم الإسلامي، ففي عام 1911 للميلاد قام رحمه الله على منبر الجامع الأموي بدمشق فأرسل تنبيهات عظيمة وإشارات بليغة إلى المسلمين، في تواضع جميل، وأخلاق عالية، وإخلاص في النصح عظيم“،[[17]](#endnote-18) وتعرف هذه الخطبة بالخطبة الشامية، التي هي بحق مشروع لبناء وحدة الأمة. ألقاها سعيد النورسي في ريعان الشباب باللغة العربية حضرها جمهور غفير من الناس يربون على عشرة آلاف[[18]](#endnote-19) شخص يتقدمهم علماء الشام، ”كان ذلك قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، ثم توالت أيام الحرب الدامية، وانتهت بأفول نجم الدولة العثمانية، وبدأت بعدها أيام محن توالت على الأستاذ النورسي بسلسلة اعتقالاته ونفيه ومحاكماته التي دامت إلى سنة 1950م، فطوال هذه السنين لم يتسن له مراجعة هذه الخطبة بل حتى أنه لم يرها، إلى أن أرسل إليه في سنة 1951م أحد أصدقائه من مدينة ’وان‘ نسخة مطبوعة منها، كان الأستاذ النورسي عند ذلك في منفاه في ’أميرداغ‘ فأعاد النظر في خطبته التي ألقاها قبل أربعين سنة، وبدأ بترجمتها إلى التركية، أو بالأحرى بتنقيحها وصياغتها مجددا، إذ ضم إليها فقرات مهمة وهوامش قيمة، وحذف منها ما يحدد شموليتها، وأحال بعض مسائلها إلى أجزاء رسائل النور، ثم درّسها لقسم من طلابه“.[[19]](#endnote-20)

فبعد الحمد والشكر لله والصلاة والسلام على رسول الله ، افتتح النورسي رحمه الله خطبته قائلا: ” فيا إخواني العرب الذين يستمعون لهذا الدرس في هذا الجامع الأموي، إنني ما صعدت هذا المنبر وإلى هذا المقام الذي هو فوق حدي، لأرشدكم فهذا أمر فوق طوقي، إذ ربما فيكم ما يقارب المائة من العلماء الأفاضل، فمثلي معكم كمثل صبي يذهب إلى المدرسة صباحا ثم يعود في المساء ليعرض ما تعلمه على أبيه، ابتغاء تصحيح أخطائه والتلطف في تصويبه وإرشاده. فشأننا معكم شأن الصبيان مع الكبار، فنحن تلامذة بالنسبة إليكم، وأنتم أساتذة لنا ولسائر أمة الإسلام، وها أنذا أعرض بعض ما تعلمته على أساتذتي: لقد تعلمت الدروس في مدرسة الحياة الاجتماعية البشرية وعلمت في هذا الزمان والمكان أن هناك ستة أمراض جعلتنا نقف على أعتاب القرون الوسطى في الوقت الذي طار فيه الأجانب -وخاصة الأوروبيون- نحو المستقبل، وتلك الأمراض هي:

أولا: حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه.

ثانيا: موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

ثالثا: حب العداوة.

رابعا: الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

خامسا: سريان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المنوعة.

سادسا: حصر الهمة في المنفعة الشخصية.

ولمعالجة هذه الأمراض الستة الفتاكة، أبين ما اقتبسته من فيض صيدلية القرآن الحكيم- الذي هو بمثابة كلية الطب في حياتنا الاجتماعية- أبينها بست كلمات، إذ لا أعرف أسلوبا للمعالجة سواها“.[[20]](#endnote-21)

فالنورسي رحمه الله يعطي نموذجا للدعاة، ودرسا للمصلحين، وتوجيها لمن يرغب في حل المشاكل والمعضلات اليومية في عصرنا الحاضر، وذلك بعد تشخيص أمراض الأمة، التي أرجعها في أصلها إلى العداوة والشقاق، ووضع وصفة للعلاج مستنبطة من كتاب الله الحكيم، وذلك بست كلمات شرحها شرحا شافيا وهي: الأمل، اليأس داء قاتل، الصدق أساس الإسلام، المحبة، تضاعف السيئات والحسنات، والشورى.

وبعد رصد الأسباب ووضع المعالم الكبرى للوحدة في الخطبة الشامية، سار النورسي في عمله الإصلاحي على المنهج الذي وضعه، فكان اختلاف مذاهب المسلمين حاضرا عنده يراعيه في عمله وكتاباته، من أجل الجمع والائتلاف واتقاء الشقاق والتفرق بسبب الخلاف في الرأي والمذهب، فكان عنده منهج للتعايش واتقاء آثار الخلاف. وتجاوز رقعة العالم الإسلامي ليرسخ منهج التعايش الدولي والسلم العالمي على القيم التي يتفق عليها جميع البشر.

### منهج التعايش وتجاوز الخلاف المذموم:

إن العالم يضم أجناسا مختلفة وإن كان الكل يعود إلى آدم عليه السلام، فهناك ألوان مختلفة وعادات متباينة وملل متنوعة، وبما أن الجميع وسعتهم أرض الله فلابد من منهج للتعايش معا بطريقة سليمة تحفظ للجميع الحقوق والواجبات دون صراع أو عدوان أو تصادم، فالحل في التعايش بسلام، وأن السلام في الإسلام هو الأصل في العلاقات بين كل الناس وأن الرسول كان يتعامل مع كل الناس، مسلمين وغير مسلمين، باحترام لحقوقهم وحرياتهم، وسعيد النورسي لم يتجاوز هذا المنهج، بل سار وفقه، وأيضا فقد كان للمدرسة النورية مقومات أساسية، تتجلى في الحكمة القرآنية، يقول سعيد النورسي: ”حكمة القرآن الكريم، فهي تقبل الحق نقطة استنادا في الحياة الاجتماعية بدلاً من القوة، وتجعل رضى الله تعالى ونيل الفضائل هو الغاية بدلاً من المنفعة، وتتخذ دستور التعاون أساساً في الحياة بدلاً من دستور الصراع، وتلتزم برابطة الدين، والصنف الواحد من الناس المنسجمين في الميول والأفكار، والأذواق والطبائع كأرباب الحرف والمهن، والوطن لربط فئات الجماعات بدلاً من العنصرية والقومية السلبية“.[[21]](#endnote-22)

ويقسم النورسي الخلاف إلى إيجابي وسلبي، ودعا إلى الاختلاف الإيجابي البناء وقال: ينبغي ”أن يكون الخلاف أو الاختلاف إيجابيا بناء، ومعناه أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين أو الطعن في وجهة نظرهم، وأبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع، والإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً، أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة، والعداوة“.[[22]](#endnote-23)

وكانت له قواعد عملية في التعامل مع المخالف، فكان شديد الحذر من أجل التعامل مع المخالف بالتي هي أحسن، يقول: ”إخوتي عليكم بمنتهى الحيطة والحذر... وإياكم إياكم أن تفتحوا باب النقاش مع العلماء بل يجب التعامل معهم بالحسنى والمصالحة على قدر الإمكان، فلا تتعرضوا لغرورهم العلمي حتى لو كان أحدهم ميّالا إلى البدع ومستحدثات الأمور، لأن الزندقة الرهيبة تجاهنا، فيجب عدم دفع هؤلاء المبتدعين إلى صف الملحدين“.[[23]](#endnote-24) ويقول أيضا: ”إنه لا يمكن العيش بسلام ووئام في مجتمع إلا بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام، أي بين الأغنياء والفقراء وأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام، وإطاعة العوام واحترامهم للخواص.“[[24]](#endnote-25) فبهذه الدقة البالغة كان يدبر أمر الخلاف بين مذاهب المسلمين، ليكون للخلاف العلمي الأثر الإيجابي كما كان في زمن السلف الصالح.

### المداومة على التزكية ومراقبة النفس أساس الوحدة والتعايش:

في هذا السياق كان النورسي يذكر دائما بأصل التزكية النفسية، من أجل اتقاء باطن الإثم وتجاوز أمراض النفوس. وعليه فإن منهج بديع الزمان سعيد النورسي في التعايش الإنساني قد دفعه إلى صرف جلّ جهده لتربية النفوس، وتقوية الإيمان، وتذكير الناس بالله واليوم الآخر، من خلال رسائل النور، وقد بدأ بالتحليل النفسي للإنسان، فقال: ”ذلك أن الإنسان حسب جبلته، وبمقتضى فطرته محب لنفسه بالذات، بل لا يحب إلا ذاته، ويضحي بكل شيء من أجل نفسه ويمدح نفسه مدحاً لا يليق إلا بالمعبود وحدة، وينزه شخصه، ويبرئ ساحته، بل لا يقر بتقصيره أصلا ويدافع عنه دفاعاً مستميتاً بما يشبه العبادة، حتى كأنّه يصرف ما أودعه الله فيه من أجهزة لحمده سبحانه وتقديسه إلى نفسه... فلا بد إذن من تزكيتها، فتزكيتها في هذه الخطوة وتطهيرها إنما يكون بعدم تزكيتها... نعم إن من يعجب بنفسه ويعتد بها شقي بينما الذي يري عيب نفسه محظوظ سعيد“،[[25]](#endnote-26) وبذلك اعتبر النفس البشرية هي العدو اللدود لكل إنسان، فدعا إلى إصلاحها بقوله: ”إن كنت تريد أن تعادي أحدا فعادي ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها، واستئصال شأفتها،[[26]](#endnote-27) وحاول أن تعادي أعدى أعدائك، وأشد ضرراً عليك، تلك هي نفسك التي بين جنبيك، فقاوم هواها، واسع إلي إصلاحها ولا تعاد المؤمنين لأجلها، فإن عداءك للمؤمنين ظلم مبين، وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبها تخمد نار الخصومة، أما إذا قابلت إساءته بمثلها، فالخصومة تزداد، حتى لو أصبح مغلوباً -ظاهراً- فقلبه يمتلئ غيظاٌ عليك... بينما مقابلته بالإحسان تسوقه إلى الندم، وقد يكون صديقاً حميماً لك، فمن شأن المؤمن أن يكون كريماً، فإن أكرمته فقد ملكته، وجعلته أخاً لك، حتى لو كان لئيماً -ظاهرا- إلا أنه كريم من حيث الإيمان“.[[27]](#endnote-28)

## خاتمة

بعد هذه الجولة العلمية ومحاولة استقراء قواعد المنهجية التربوية والعلمية عند سعيد النورسي من كليات رسائل النور -التي هي عبارة عن فيض قرآني، وهي كلها حكم وتوجيهات وآداب وأخلاق- فالنورسي رحمه الله ينطلق من صيدلية القرآن ومن الكلمات الست التي تضمنتها الخطبة الشامية، ومن كونه يقدر الإنسان ويفضله على سائر المخلوقات، حيث يقول: ”إن جوهر الإنسان جليل، وماهيته رفيعة، وجنايته كذلك عظيمة، وطاعته وانقياده مهمة، فهو لا يشبه سائر الكائنات، لذا لا يمكن أن لا ينتظم مع الكائنات ولا ينقاد للأوامر“،[[28]](#endnote-29) لذا كان النورسي يسير وفق منهج النبوة ويتواصل ويتعامل مع أخيه الإنسان بتوجيهات القرآن، قال رسول الله : ”قد تركتكم على البيضاء[[29]](#endnote-30) ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك“.[[30]](#endnote-31)

إن قواعد المنهجية التربوية والعلمية عند النورسي، أكسبته ثقة طلابه وأتباعه، وأعطت أكبر نجاح لرسائل النور، أمام الحشد الغفير من المعارضين، والفلاسفة المتعنتين، وكل أنصار الضلال، فلم يستطيعوا منع انتشار كتبه بالرغم من وقوفهم سدا منيعا في وجهها، بل تحداهم بإيمانه، فانتشرت رسائل النور، وتلقاها الناس بشوق بالغ منقطع النظير، فكان منهجه سببا لنجاحه وانتشار رسائله.

\* \* \*

## لائحة المصادر والمراجع

– القرآن الكريم.

– إشراقات نورية من الديار المغربية للدكتور عبد الكريم عكيوي، منشورات جمعية المركز المغربي للثقافة والتنمية والتعاون بتنسيق مع مركز إسطنبول للثقافة والعلوم.

– بديع الزمان (نظرة عامة عن حياته وآثاره) إحسان قاسم الصالحي.

– تاج العروس من جواهر القاموس، لمؤلفه: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبي الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

– تهذيب اللغة لمؤلفه محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، 2001م.

– الخطبة الشامية في علاج أمراض الأمة الإسلامية - ترجمة وتحقيق وتقديم إحسان قاسم الصالحي محرم الحرام 1409 (مطبوع ضمن رسائل النور الجزء الثامن.

– الرجل والإعصار، سيرة ذاتية مختصرة لبديع الزمان النورسي -المجلد التاسع من كليات رسائل النور- دار الكلمات الجزائر- الطبعة الأولى 2004م.

– صيقل الإسلام/ محاكمات على برهان الكلنبوي/ رسائل النور الجزء الثامن.

– سنن ابن ماجه لابن ماجة أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، المتوفى: 273هـ)، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

– سنن الترمذي لمؤلفه: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى، الترمذي، أبي عيسى (المتوفى: 279هـ) تحقيق وتعليق مجموعة من الأساتذة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي -مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ-1975

– السنن الصغرى للنسائي = المجتبى من السنن، لأبي عبد الرحمن أحمد بن الخراساني، النسائي (المتوفى: 303هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، 1406 – 1986

– الكلمات- المجلد الأول من- كليات رسائل النور-

– المعجزات القرآنية المجلد الخامس من- كليات رسائل النور- الملاحق – المجلد السابع من- كليات رسائل النور ملحق أميرداغ رقم3.

– الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المؤلف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، الناشر دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1420 هـ

– الموسوعة الحركية ”جزءان“ فتحي يكن، دار البشير، عمان، الأردن، 1403هـ/1983م.

– النورسي (حياته وبعض آثاره)، د. محمد سعيد رمضان البو

1. استاذ في كلية الآداب جامعة ابن زهر أكادير–المغرب. [↑](#endnote-ref-2)
2. ينظر الخطبة الشامية في صيقل الإسلام، ص 491–538. [↑](#endnote-ref-3)
3. صيقل الإسلام، ص 556. [↑](#endnote-ref-4)
4. صيقل الإسلام، ص 24. [↑](#endnote-ref-5)
5. ”إشراقات نورية من الديار المغربية“ للدكتور عبد الكريم عكيوي، ص 68. [↑](#endnote-ref-6)
6. ينظر رسالة الطبيعة في اللمعات، ص 265- 298. [↑](#endnote-ref-7)
7. ”مؤلفات بديع الزمان النورسي كنموذج لتقديم الإسلام إلى الغرب“ مؤتمر بديع الزمان النورسي، إسطنبول 1992م، ص 222- 223. [↑](#endnote-ref-8)
8. ينظر ”أسس الوحدة الفكرية عند بديع الزمان النورسي“ للدكتور عبد الكريم عكيوي، ص 25–34. [↑](#endnote-ref-9)
9. الكلمات، ص 175 – 178. [↑](#endnote-ref-10)
10. إشراقات نورية من الديار المغربية، ص 79. [↑](#endnote-ref-11)
11. الكلمات، ص 254 [↑](#endnote-ref-12)
12. اللمعات، ص 6–9. [↑](#endnote-ref-13)
13. اللمعات، ص 10–20. [↑](#endnote-ref-14)
14. اللمعات، ص 268. [↑](#endnote-ref-15)
15. الخطبة الشامية، ص 88. [↑](#endnote-ref-16)
16. إشراقات نورية من الديار المغربية، ص 160. [↑](#endnote-ref-17)
17. إشراقات نورية من الديار المغربية، ص 161. [↑](#endnote-ref-18)
18. الخطبة الشامية، ص5- مقدمة الكتاب بقلم إحسان قاسم الصالحي محرم الحرام 1409. [↑](#endnote-ref-19)
19. الخطبة الشامية، ص6 –مقدمة الكتاب بقلم إحسان قاسم الصالحي. [↑](#endnote-ref-20)
20. الخطبة الشامية، ص24. [↑](#endnote-ref-21)
21. الكلمات، 145. [↑](#endnote-ref-22)
22. المكتوبات، 347. [↑](#endnote-ref-23)
23. الملاحق–ملحق أميرداغ، ص 286. [↑](#endnote-ref-24)
24. الكلمات: 474. [↑](#endnote-ref-25)
25. المكتوبات، ص 423، 595. [↑](#endnote-ref-26)
26. الشأفة: الأَصْل، واستأصل الله شأفته، أَي أَصله قَالَ: والشأفة: الْعَدَاوَة. تهذيب اللغة باب الشين وَالْفَاء. [↑](#endnote-ref-27)
27. المكتوبات، ص 343. [↑](#endnote-ref-28)
28. صيقل الإسلام/ محاكمات، ص54. [↑](#endnote-ref-29)
29. أي الملة والحجة الواضحة التي لا تقبل الشبه أصلا. [↑](#endnote-ref-30)
30. أخرجه ابن ماجه عن العرباض بن سارية في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين رقم 43 (1/16). [↑](#endnote-ref-31)